تفسير القرآن الكريم
بين
التحرج والتحرر

بقـــلم

الدكتور محمد إبراهيم شريف

الباحث في كلمات

الاســــــــم : محمد إبراهيم السيد شريف.

تاريخ ومكان الميلاد : ١٩٤٣م ـ مركز المحلة الكبرى ـ غربية ـ مصر.

المؤهلات العلمية : ليسانس اللغة العربية والعلوم الإسلامية ـ كلية دار العلوم جامعة القاهرة ـ ١٩٦٧م.

ماجستير في العلوم الإسلامية (تفسير القرآن) من كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٧٣م.

دكتـوراه في العلوم الإسلامية (تفسير القرآن) من كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٧٩م.

العمــل الحــالى : أستاذ مساعد بقسم القرآن وعلومه بالكلية.

أهم البحوث والمؤلفات :

* اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر (دكتوراه) نشر دار التراث بالقاهرة. ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
* من هدى القـرآن الكـريم في نظـام الاجتماع وآداب السلـوك ـ (الكتاب الأول) طبع القاهرة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
* بحـوث في تفسير القرآن الكريم (تاريخـه ـ اتجاهاتـه ـ مناهجه) طبع القاهرة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
* هداية القـرآن الكريـم في الآفـاق والأنفس وإعجازه العلمي. طبع القاهرة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
* البغـوى الفــراء وتفسيــره للقــرآن الكـريم (المــاجستير). طبع القاهرة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

القسم الأول :

يلحظ المتتبع لأنشطة المسلمين الأوائل حول القرآن الكريم وبخاصة تلك الأنشطة الكاشفة عن معاني ألفاظه والمبينة لمضمون آياته وهو ما أطلق عليه تفسير القرآن الكريم ـ أن هؤلاء المسلمين الأوائل قد اختلفت وجهات نظرهم حول هذا الموضوع حيث خلفوا لنا موقفين متقابلين:

أحدهما : تحرر النظر إلى كتاب الله والاجتهاد بالفهم الشخصي لنصوصه وآياته على أسس معينة ومحددة.

وثانيهما : التحرّج الشديد من القول بالرأي والاجتهاد، وضرورة التوقف في ذلك عند حدود المسموع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته.

ومن هذين الموقفين المتقابلين تكونت البذور الأولى للاتجاهات التفسيرية التى ظهرت واضحة جلية في العصور التالية لعصر الصحابة والتابعين، ومازالت مستمرة إلى العصر الحديث في أشكال متنوعة.

بيد أن من الضرورى ـ في مقال كهذا ـ تجلية بعض جوانب هذه المسألة بالكشف عن الأسس والدعائم التى قام عليها كلا الموقفين المتقابلين، وفهم الآثار الواردة هنا ـ عن إعظام بعض السلف القول في تفسير القرآن الكريم وتهيبهم له ـ على وجهها الصحيح بما يتفق وضرورة الوقوف على معاني النص ومضامين الآيات الكريمة، وهو نتيجة التدبر والتأمل المأمور بهما في القرآن الكريم.

ويبدأ موقف التحرّج ـ كما يبدو من الروايات الصحيحة في هذا الموضوع ـ عند الخليفتين الأولين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فحينما سئل أبو بكر عن لفظ الكلالة في قوله تعالى:

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ ﴾

(١٢ النساء)

قال: «إني سأقـول فيهـا برأيي فإن كان صوابـا فمـن الله وإن كان خطأ فمني. . . .»، وعندما سئل عن قوله تعالى:

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾

(٨٥ النساء)

قال: أى سماء تظلني وأى أرض تقلني إن قلت في كتاب الله مالا أعلم؟.

ومثل هذا ما ورد عن عمر بن الخطاب أيضا فيما يحكيه الإمام الشاطبي من أنه كان يقرأ قوله تعالى:

﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾

(٢٧-٣١ عبس)

فقال: هذه الفاكهة والقضب وهذه الأشياء قد عرفناها، فما الأبّ؟ فوضع يده على رأسه ثم قال: «إن هذا لهو التكلف يا ابن أم عمر، وما عليك ألا تدرى ما الأبّ؟.

ويستمـر هذا المـوقف عند صغار الصحابة وكبار التابعين فيقصرون نظرهم في القرآن الكريم على ما سمعوه من الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة رضوان الله عليهم، وهذا واضح من رواية حماد بن زيد عن عبدالله بن عمر قال: لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم سالم بن عبدالله، والقاسم بن محمد، ونافع، وسعيد بن المسيِّب[1].

ولم يكن علماء المدينة وحدهم المتحرجين من القول في القرآن الكريم بآرائهم كما تفيد رواية حماد بن زيد هذه، وإنما شاركهم في ذلك الموقف كثير من علماء مكة من تلاميذ ابن عبـاس الـذين اشتهـرت مدرستهم ـ تبعا لأستاذهم ـ بكثير من الحرية

والجرأة والاجتهاد في تفسير القرآن الكريم، كما شارك هؤلاء وأولئك في هذا الموقف كثير من علماء الكوفة ـ تلاميذ عبدالله بن مسعود ـ الذين تميزت مدرستهم في عمومها بنـزعة عقلية تحررية لا تقل عن حرية المفسرين المكيين، ومع هذا فقد وجدنا من تلاميذ هاتين المدرستين من يشارك علماء المدينة في تحرجهم من أن يقولوا في القرآن الكريم بآرائهم.

فهذا عطاء بن أبي رباح يشتهر بين أصحاب ابن عباس بقلة الرواية التفسيرية مع قول ابن عباس فيه: يا أهل مكة تجتمعون إليّ وفيكم عطاء؟ ويفسر لنا عدم اشتهاره بالتفسير وتحرجه منه ما قاله عبدالعزيز بن رفيع من أن عطاء سئل عن مسألة فقال: لا أدرى، فقيل له: ألا تقـول فيها برأيك؟ قال: إني أستحي من الله أن يدان في الأرض برأيي[٢].

أما سعيد بن جبير فقد كان طوال حياته هيّاباً للقول في كتاب الله ـ مع غزارة علمه واشتهـاره بالتفسير والنبوغ فيه ـ فقد روى ابن خَلّكان في وفياته أن رجلا سأله أن يكتب له تفسير القرآن الكريم فغضب وقال: لأن يسقط شقى أحب إليّ من ذلك.

وفي الكوفة نجد عامر بن شراحيل الشعبي الذي قال عنه ابن سيرين: لقد رأيته يستفتى وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ومع عظم مكانة الشعبي هذه فقد تحرج من القول في القرآن الكريم ـ كما قال علماء العراق ـ وتوقف عنه تورعا، قال ابن عطية المفسر: كان جلة من السلف كسعيد بن المسيِّب وعامر الشعبي يعظمون تفسير القرآن الكريم ويتوقفون عنه تورعا واحتياطا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم.

وقد أخرج الطبري عن الشعبي قوله: والله ما من آية إلا سألت عنها ولكنها الرواية عن الله، كما روى عنـه قولـه: أدركتهم ـ يعني صغـار الصحـابة وكبار التابعين ـ وما شيء أبغض إليهم أن يسألوا عنه ولاهم له أهيب من القول في القرآن الكريم[٣].

وربما استمسك هؤلاء جميعا في موقفهم هذا بما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، ولهذا يخلص الربيع بن

مراجع القسم الأول :

(١) راجع : مقدمتان في علوم القرآن تحقيق آرثر جفرى ص١٨٣ .
(٢) راجع : تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ٧/١٩٩ .
(٣) راجع : مقدمتان في علوم القرآن ص١٨٤ وقارن ذلك بما ورد عند الطبري في صفحات عدة في مقدمة تفسيره تحت عنوان : «ذكر من كان من السابقين محمودا قوله في التفسير ومن كان مذموما» .
(٤) راجع : مقدمتان في علوم القرآن ص ١٨٣ ، ٢٦٢ .
(٥) راجع في هذه التخريجات وغيرها : مقدمتان في علوم القرآن ص ١٨٤ ـ ١٩٠ .
(٦) راجع : تفسير البغوى ١/١٨ ، ومقدمة في أصول التفسير ـ ابن تيمية ص ٣١ـ ٣٢.

حكاية عن الشيطان، . . . وبين قولٍ في القرآن الكريم بالرأي على علم وهدى من الكتاب والسنة، وهو ما يساوى التدبر والتفهم والاستنباط، وهو مدار التأويل الموافق لأصول الدين والشرع وسياق النصوص، وهو ما يفهم من عموم قوله تعالى إخبارا عن أهل الكتاب:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾

(١٨٧ آل عمران)

ومقتضى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[٦].

ذلك ما كان من موقف أولئك المتحرجين، ومعتمد موقفهم من الآثار التى لم يُحْكِم كثير ممن تابعوهم فقهها على وجهها الصحيح الذي أوضحناه والذي يلتقون به مع موقف إخوانهم ممن وعوا أصل الدعوة إلى تفسير القرآن الكريم وكشفوا عن ضرورتها فتحررت نظرتهم في هذا المجال.

وعلينا الآن أن نتناول الموضوع من طرفه الآخر فنعرض لموقف إخوانهم من الفريق الآخر الذين تحررت نظرتهم إلى تفسير القرآن الكريم، ولم تتقيد بما أثر ـ فحسب ـ عن الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة، ومعتمدهم في هذا الموقف من النصوص والآثار الداعية إلى تفهم النص القرآني على نحو من الحرية التى لا ترتبط تماماً بنظرات السابقين أو تتقيد بجهودهم فلا تخرج عنها، وهذا ما نعرض له ـ بإذن الله ـ في الصفحات التالية.

النبت، وليس يضره أن لا يعرف جميع أنواع النباتات بأعيانها ولن تلحقه نقيصة بعدم معرفته ذلك[٥].

وأما ما ذكروه من امتناع من امتنع من القول في التفسير وتهيبه لذلك، فإن هذا كان منهم بمنزلة من امتنع عن الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا فيما لم يكن منه بد، اغتناما منهم للسلامة، إذ وجدوا من قد كفاهم ذلك من غيرهم، فكذلك امتناع من امتنع منهم عن أن يتكلم في كتاب الله عز وجل، كأن المسألة قد نظروا إليها من خلال تبعتها الشرعية، فما دام غيرهم قد قام بالتفسير فقد سقط الواجب الكفائي عنهم بقيام غيرهم به.

أما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي استندوا إليه في تهيبهم وامتناعهم عن الكلام في القرآن الكريم بآرائهم؛ إذ قد حكم عليهم بالخطأ وإن أصابوا - فالحكم بالخطأ فيه محمول على أن يُسْأل الرجل عن معنى في كتاب الله فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء أو اقتضته قوانين العلوم وأصولها، فليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحاة نحوه والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبنى على قوانين العلم والنظر، فإن هذا القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه.

وقد عالج العلماء هذا الأثر وأمثاله الناهية عن القول في القرآن بالرأي بالتفرقة بين قول بالرأي بدون علم وهو يساوى تأويل الجاهلين والمغرضين الذين عنوا به باطن الآية وهو متعلق النهي في الآثار ومدار تحرج السلف والذي يفهم من قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(٣٦ الإسراء)

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(١٦٩ البقرة)

بعد ذلك إلى التفسير كما يتضح من الرواية عنه في تفسير لفظ «الكلالة».

ثالثها : ويحتمل أنه قال ذلك ممتنعا عن التفسير مع معرفته له، ولا موضع للظن فيه بأنه جهل معنى ما سئل عنه، فلقد فسره المفسرون بعده واستشهدوا له بما لا يجهله مثل أبي بكر ومن في مكانته، ولكن المظنون بأبي بكر هنا أنه عظم في صدره القرآن الكريم وجلّ قدره عن أن يتكلم فيه لغير موضع الحاجة التى لابد منها، ولم يأمن أنه إن أبدل اللفظة بلفظة، لعلها لا تقع موقع أختها في إبلاغ الوصف، كما تقول: رجل جواد، سخي، باذل، كريم، منفق، فتفيد كلها معنى واحداً مع أن بعضها أبلغ في المدح وأتم في الوصف من بعضها الآخر.

ويستأنس لهذا الاحتمال بما روى عن أبي الشعثاء أنه قال لعبدالله بن مسعود: يا أبا عبدالرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت، قال: وما ذاك؟ قال: لأني سمعت الله يقول:

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

(٩ الحشر)

وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يديَّ شيء؟ قال: ليس ذلك الشح الذي ذكره الله تعالى، ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلما، ولكن ذلك البخل، وبئس الشيء البخل!.

فعلى هذا السبيل امتنع أبو بكر من أن يتكلم فيما سئل عنه وقد علم أن بالسائل غنى عن سؤاله إذ ليس لفظ «مقيتا» بالأمر الرباني الذي يحتاج إلى امتثاله ولا هو نهي يلزمه اجتنابه، وإنما هو ثناء على الله عز وجل، وأولى به أن يترك على ما أنزله الله تعالى في كتابه.

ومثل ذلك تماما ما روي عن عمر في لفظ «الأب» فقد علم عمر أنه ضَرْبٌ من

خثيم من هذا الموقف بتلك النصيحة المركزة التى يوجهها إلى القائلين في القرآن الكريم بآرائهم قال: ليتق أحدكم التكذيب ! إياه أن يقول: قال الله كذا وكذا، فيقول الله : كذبت، لم أقل، أو يقول: لم يقل الله كذا وكذا، فيقول الله : كذبت قد قلت[٤].

ومن الملاحظ أن هذه الآثار وكثيراً غيرها قد تعلق بها بعض المنكرين للتفسير بالرأي، وجعلوها علة لمنعه بإطلاق، واتخذوها ذريعة إلى الطعن على من فسر القرآن الكريم بغير المنقول والمسموع عن السابقين، ورفعوا لواء الاقتصار في فهم النصوص على ظواهرها والوقوف عند حدود المنقول عن السابقين.

والحق أن في هذا الموقف من التفريط والتقصير، وإغماط النص القرآني حقه وقيمته مالا يقل عن إفراط وتطاول المغرضين والمسيئين الذين ذهبوا في فهم النص القرآني كل مذهب دون ضابط من لغة أو شرع، أو وازع من دين أو ضمير، ومثل هذا وذاك فساد أو إفساد يجب كشفه والتنبيه عليه وتعقب متعلقات أصحابه من هذه الآثار والإجابة عنها وبيان وجه الحكمة فيها.

فأما ما روى عن أبي بكر ـ ومثله ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ـ من إعظامه القول في القرآن الكريم فإن له وجوها يخرّج عليها.

أحدهـا : أنه رضى الله عنه لم يُرِد في أول أمره ـ وقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من بين الأمة ـ أن يطرق الناس عامة القول في القرآن الكريم فيكـون ذلك شيئا يتعاطاه من لم يكن من أهله سوى من اختصه الله بذلك من فضله كمشاهير المفسرين من الصحابة : عليّ وابن عباس وابن مسعود رضوان الله عليهم.

ثانيهـا : يحتمل أنه إنما قال ذلك في أول وهلة سئل عنه فرأى في ذلك الوقت لذلك الأمر ذلك الرأى، ثم إنه لما تدبر واجتهد في الرأي وتفكر، وعلم أن الأمة لا غنى لها عن التفسير حتى لا يتطرق إليهم الخلل في القول والعمل صار

والجرأة والاجتهاد في تفسير القرآن الكريم، كما شارك هؤلاء وأولئك في هذا الموقف كثير من علماء الكوفة ـ تلاميذ عبدالله بن مسعود ـ الذين تميزت مدرستهم في عمومها بنـزعة عقلية تحررية لا تقل عن حرية المفسرين المكيين، ومع هذا فقد وجدنا من تلاميذ هاتين المدرستين من يشارك علماء المدينة في تحرجهم من أن يقولوا في القرآن الكريم بآرائهم.

فهذا عطاء بن أبي رباح يشتهر بين أصحاب ابن عباس بقلة الرواية التفسيرية مع قول ابن عباس فيه: يا أهل مكة تجتمعون إليّ وفيكم عطاء؟ ويفسر لنا عدم اشتهاره بالتفسير وتحرجه منه ما قاله عبدالعزيز بن رفيع من أن عطاء سئل عن مسألة فقال: لا أدرى، فقيل له: ألا تقـول فيها برأيك؟ قال: إني أستحي من الله أن يدان في الأرض برأيي[٢].

أما سعيد بن جبير فقد كان طوال حياته هيّاباً للقول في كتاب الله ـ مع غزارة علمه واشتهـاره بالتفسير والنبوغ فيه ـ فقد روى ابن خَلّكان في وفياته أن رجلا سأله أن يكتب له تفسير القرآن الكريم فغضب وقال: لأن يسقط شقى أحب إليّ من ذلك.

وفي الكوفة نجد عامر بن شراحيل الشعبي الذي قال عنه ابن سيرين: لقد رأيته يستفتى وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ومع عظم مكانة الشعبي هذه فقد تحرج من القول في القرآن الكريم ـ كما قال علماء العراق ـ وتوقف عنه تورعا، قال ابن عطية المفسر: كان جلة من السلف كسعيد بن المسيِّب وعامر الشعبي يعظمون تفسير القرآن الكريم ويتوقفون عنه تورعا واحتياطا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم.

وقد أخرج الطبري عن الشعبي قوله: والله ما من آية إلا سألت عنها ولكنها الرواية عن الله، كما روى عنـه قولـه: أدركتهم ـ يعني صغـار الصحـابة وكبار التابعين ـ وما شيء أبغض إليهم أن يسألوا عنه ولاهم له أهيب من القول في القرآن الكريم[٣].

وربما استمسك هؤلاء جميعا في موقفهم هذا بما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، ولهذا يخلص الربيع بن

خثيم من هذا الموقف بتلك النصيحة المركزة التى يوجهها إلى القائلين في القرآن الكريم بآرائهم قال: ليتق أحدكم التكذيب ! إياه أن يقول: قال الله كذا وكذا، فيقول الله : كذبت، لم أقل، أو يقول: لم يقل الله كذا وكذا، فيقول الله : كذبت قد قلت[٤].

ومن الملاحظ أن هذه الآثار وكثيراً غيرها قد تعلق بها بعض المنكرين للتفسير بالرأي، وجعلوها علة لمنعه بإطلاق، واتخذوها ذريعة إلى الطعن على من فسر القرآن الكريم بغير المنقول والمسموع عن السابقين، ورفعوا لواء الاقتصار في فهم النصوص على ظواهرها والوقوف عند حدود المنقول عن السابقين.

والحق أن في هذا الموقف من التفريط والتقصير، وإغماط النص القرآني حقه وقيمته مالا يقل عن إفراط وتطاول المغرضين والمسيئين الذين ذهبوا في فهم النص القرآني كل مذهب دون ضابط من لغة أو شرع، أو وازع من دين أو ضمير، ومثل هذا وذاك فساد أو إفساد يجب كشفه والتنبيه عليه وتعقب متعلقات أصحابه من هذه الآثار والإجابة عنها وبيان وجه الحكمة فيها.

فأما ما روى عن أبي بكر - ومثله ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما - من إعظامه القول في القرآن الكريم فإن له وجوها يخرّج عليها.

أحدهـا : أنه رضى الله عنه لم يُرِد في أول أمره - وقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من بين الأمة - أن يطرق الناس عامة القول في القرآن الكريم فيكون ذلك شيئا يتعاطاه من لم يكن من أهله سوى من اختصه الله بذلك من فضله كمشاهير المفسرين من الصحابة: عليّ وابن عباس وابن مسعود رضوان الله عليهم.

ثانيهـا : يحتمل أنه إنما قال ذلك في أول وهلة سئل عنه فرأى في ذلك الوقت لذلك الأمر ذلك الرأى، ثم إنه لما تدبر واجتهد في الرأي وتفكر، وعلم أن الأمة لا غنى لها عن التفسير حتى لا يتطرق إليهم الخلل في القول والعمل صار

بعد ذلك إلى التفسير كما يتضح من الرواية عنه في تفسير لفظ «الكلالة».

ثالثها : ويحتمل أنه قال ذلك ممتنعا عن التفسير مع معرفته له، ولا موضع للظن فيه بأنه جهل معنى ما سئل عنه، فلقد فسره المفسرون بعده واستشهدوا له بما لا يجهله مثل أبي بكر ومن في مكانته، ولكن المظنون بأبي بكر هنا أنه عظم في صدره القرآن الكريم وجلّ قدره عن أن يتكلم فيه لغير موضع الحاجة التى لابد منها، ولم يأمن أنه إن أبدل اللفظة بلفظة، لعلها لا تقع موقع أختها في إبلاغ الوصف، كما تقول: رجل جواد، سخي، باذل، كريم، منفق، فتفيد كلها معنى واحداً مع أن بعضها أبلغ في المدح وأتم في الوصف من بعضها الآخر.

ويستأنس لهذا الاحتمال بما روى عن أبي الشعثاء أنه قال لعبدالله بن مسعود: يا أبا عبدالرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت، قال: وما ذاك؟ قال: لأني سمعت الله يقول:

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

(٩ الحشر)

وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يديَّ شيء؟ قال: ليس ذلك الشح الذي ذكره الله تعالى، ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلما، ولكن ذلك البخل، وبئس الشيء البخل!.

فعلى هذا السبيل امتنع أبو بكر من أن يتكلم فيما سئل عنه وقد علم أن بالسائل غنى عن سؤاله إذ ليس لفظ «مقيتا» بالأمر الرباني الذي يحتاج إلى امتثاله ولا هو نهي يلزمه اجتنابه، وإنما هو ثناء على الله عز وجل، وأولى به أن يترك على ما أنزله الله تعالى في كتابه.

ومثل ذلك تماما ما روي عن عمر في لفظ «الأب» فقد علم عمر أنه ضَرْبٌ من

النبت، وليس يضره أن لا يعرف جميع أنواع النباتات بأعيانها ولن تلحقه نقيصة بعدم معرفته ذلك[٥].

وأما ما ذكروه من امتناع من امتنع من القول في التفسير وتهيبه لذلك، فإن هذا كان منهم بمنزلة من امتنع عن الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا فيما لم يكن منه بد، اغتناما منهم للسلامة، إذ وجدوا من قد كفاهم ذلك من غيرهم، فكذلك امتناع من امتنع منهم عن أن يتكلم في كتاب الله عز وجل، كأن المسألة قد نظروا إليها من خلال تبعتها الشرعية، فما دام غيرهم قد قام بالتفسير فقد سقط الواجب الكفائي عنهم بقيام غيرهم به.

أما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي استندوا إليه في تهيبهم وامتناعهم عن الكلام في القرآن الكريم بآرائهم؛ إذ قد حكم عليهم بالخطأ وإن أصابوا - فالحكم بالخطأ فيه محمول على أن يُسْأل الرجل عن معنى في كتاب الله فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء أو اقتضته قوانين العلوم وأصولها، فليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحاة نحوه والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبنى على قوانين العلم والنظر، فإن هذا القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه.

وقد عالج العلماء هذا الأثر وأمثاله الناهية عن القول في القرآن بالرأي بالتفرقة بين قول بالرأي بدون علم وهو يساوى تأويل الجاهلين والمغرضين الذين عنوا به باطن الآية وهو متعلق النهي في الآثار ومدار تحرج السلف والذي يفهم من قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(٣٦ الإسراء)

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(١٦٩ البقرة)

حكاية عن الشيطان، . . . وبين قول في القرآن الكريم بالرأي على علم وهدى من الكتاب والسنة، وهو ما يساوى التدبر والتفهم والاستنباط، وهو مدار التأويل الموافق لأصول الدين والشرع وسياق النصوص، وهو ما يفهم من عموم قوله تعالى إخبارا عن أهل الكتاب:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾

(١٨٧ آل عمران)

ومقتضى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[٦].

ذلك ما كان من موقف أولئك المتحرجين، ومعتمد موقفهم من الآثار التى لم يُحْكِم كثير ممن تابعوهم فقهها على وجهها الصحيح الذي أوضحناه والذي يلتقون به مع موقف إخوانهم ممن وعوا أصل الدعوة إلى تفسير القرآن الكريم وكشفوا عن ضرورتها فتحررت نظرتهم في هذا المجال.

وعلينا الآن أن نتناول الموضوع من طرفه الآخر فنعرض لموقف إخوانهم من الفريق الآخر الذين تحررت نظرتهم إلى تفسير القرآن الكريم، ولم تتقيد بما أثر ـ فحسب ـ عن الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة، ومعتمدهم في هذا الموقف من النصوص والآثار الداعية إلى تفهم النص القرآني على نحو من الحرية التى لا ترتبط تماماً بنظرات السابقين أو تتقيد بجهودهم فلا تخرج عنها، وهذا ما نعرض له ـ بإذن الله ـ في الصفحات التالية.

مراجع القسم الأول :

(١) راجع : مقدمتان في علوم القرآن تحقيق آرثر جفرى ص١٨٣ .

(٢) راجع : تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ٧/١٩٩ .

(٣) راجع : مقدمتان في علوم القرآن ص١٨٤ وقارن ذلك بما ورد عند الطبري في صفحات عدة في مقدمة تفسيره تحت عنوان : «ذكر من كان من السابقين محمودا قوله في التفسير ومن كان مذموما» .

(٤) راجع : مقدمتان في علوم القرآن ص ١٨٣ ، ٢٦٢ .

(٥) راجع في هذه التخريجات وغيرها : مقدمتان في علوم القرآن ص ١٨٤ ـ ١٩٠ .

(٦) راجع : تفسير البغوى ١/١٨ ، ومقدمة في أصول التفسير ـ ابن تيمية ص ٣١ـ ٣٢ .

القسم الثاني

في القسم الأول من هذا المقـال تناولنا الجانب الأول من الجانبين المتقابلين في نظرة المسلمين والمفسرين منهم إلى كتاب دينهم والذي يمثل جانب التحرّج والخشية من القـول في القـرآن الكريم بالرأي ومستند هؤلاء في موقفهم من الآثار والنصوص، وما ينبغى أن تفهم عليه هذه النصوص التى أورثتهم ذلك الموقف، ونتناول في هذا القسم الجانب المقابل لسابقه والذي يمثل موقف التحرر في فهم القرآن الكريم، ومستند أصحاب هذا الموقف من الآثار والدلائل وأساس موقفهم هذا الذي وعدنا بالتعرض له من قبل.

أما أصل الدعوة إلى التفسير الموجهة إلى جميع الأمة فقد رأى العلماء المتخصصون في هذا الشأن والعارفون به أننا مأمورون شرعا بتطلب تفسير القرآن الكريم والكشف عن معاني كلامه وتعلم ذلك وتعليمه، وعدم الاقتصار على ما ورد عن السلف في ذلك أو الاكتفاء بظاهر النص القريب، وهذا ما نجده واضحا في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾

(١٨٧ آل عمران)

وفي قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٧ ﴾ (٧٧ آل عمران)

ففي هاتين الآيتين يذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعهم لحطامها واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله، وهو أمر يفهم منه وجوب الإعراض عما ذمهم الله تعالى من أجله، والائتمار بما أمرهم وأمرنا به من تَعَلُّم كتابه وتَعْليمه وتَفَهُّمه وتَفْهيمه.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو صراحة إلى العناية بتفسير القرآن الكريم مثل ما نجده في قوله تعالى:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٢٩ ص)

فمتدبر الآيات والأقوال هو الذي يتتبع ما تؤدى إليه من العواقب والأغراض المقصودة منها، والتدبر بهذا ليس بعيدا عن التأويل الذي يتتبع فيه المفسر ما يؤول إليه القول من غرض وما يؤديه من معنى.

وقول الله تعالى:

﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

وصف مترتب على إعمال العقول والألباب في القرآن الكريم، وليس ذلك إلا بتتبع معانيه وكشفها وتوضيحها، ولو أراد الله هنا مجرد حفظ اللفظ والوقوف على ظاهره لاكتفى بذكر الآذان وصفتها من الاستماع بدلا من الألباب وصفتها من التعقل والتدبر.

وفي قوله تعالى:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾

(٨٩ النحل)

حجة أخرى، إذ قد علم أن ذلك البيان ليس كله منصوصا عليه في ظاهر القرآن الكريم ولا يقول بذلك عاقل أبدا، ولكن منه ظاهرا لا كلفة في الوقوف عليه ومنه ما يتكلف طلبه واستدراكه بضرب من النظر وإعمال العقل، وليس ذلك شيئا آخر غير التدبر والتأمل في نصوص الآيات وتأويلها وتفسيرها بما يتحصل به المراد منها.

فإذا ما انتقلنا إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصريحات أصحابه رضوان الله عليهم الذين عاصروا نزول الوحي وعرفوا ظروف التنزيل وملابساته ـ وجدنا من التحريض على قراءة القرآن الكريم وتفهم معانيه مالا يسع أحدا المكابرة في ضرورة تطلب التفسير والعناية بأمره، وازدادت الدعوة إلى التفسير تأصلا في نفوسنا واكتشفنا أننا بإزاء النص القرآني أمام معانٍ لا حدود لها ومفهومات لا تتناهى، وكلها تحتويها العبارة القرآنية الواسعة الثراء.

ففي الحديث النبوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»، ولهذا كان الصحابة والتابعون بعدهم يحرصون على تفهم كتاب الله وتطلب تفسيره يقول عبدالله بن مسعود رضى الله عنه: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن» وكان الحسن يقول: «والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيمن أنزلت وما يعنى بها»[1].

ولا شك بعد هذا أن عدم الوقوف على تفسير القرآن الكريم يجعل الإنسان جاهلا بمقاصد القرآن الكريم، أو كما قال سعيد بن جبير: «من قرأ القرآن ولم يفسره كان كالأعمى»، أو كما قال إياس بن معاوية: «مثل الذين يقرأون القرآن وهم لا يعلمون

تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعـة ولا يدرون ما في الكتـاب، ومثـل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب».

ويروى عن ابن عباس قال: «القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه»[٢] والمعنى أنه ميسر لانطلاق الألسنة به في يسر وسهولة وأنه يحتمل وجوها من التفسير والمعاني بسبب إعجاز عبارته واتساعها وتوجه آياته للبشرية جميعها في كل عصر ومصر، أما حمله على أحسن وجوهه فيراد به تفسيره وتأويله على أحسن المعاني المحتملة، ويتفق مع هذا المعنى ما نسب إليه من أن القرآن الكريم ذو شجون وفنون وظهور وبطون لا تنقضي عجـائبـه ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى، وأن ظهره التلاوة وبطنه التأويل.

كما يروى عن هذا الصحـابي الجليل ـ الـذي اعتـبر منذ حداثته ترجمان القرآن الكريم وحَبْر الأمة ـ عندما تلا بجبل عرفات قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

(١٢ الطلاق)

أنه قال: «أيها القوم لو كنت لأشرح لكم هذه الآية كما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يشرحها لرجمتموني»، وفي حديث آخر له يقول: «إني لآتى على آية من كتاب الله فوددت أن المسلمين يعلمون منها ما أعلم»[٣].

والأحاديث والآثار عن ابن عباس ـ وعن غيره من الصحابة ـ في هذا المعنى كثيرة، وكلها تنطق بأن للقرآن الكريم معانٍ بعيدة عالية تستدعى تأهيلا خاصا لإدراكها وفهمها من نوع أهلية اللغة العربية ومستواها وإعداد الله لها لتحمل معاني كتابه.

ومن هذه الآثار والنصوص من آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكبار الذين فقهوا الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية

في هذا الموضوع ـ استنبط المفسرون ـ كما ذكرنا من قبل ـ وجوب تفسير القرآن الكريم، وأننا مأمورون شرعا بتطلب معانيه والوقوف عليها.

فهذا ابن عطية المفسر يقول في مقدمة تفسيره «المحرر الوجيز» ناعيا على الناس ميلهم إلى قراءة القرآن دون تدبره وتفهمه: قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

(١٧ القمر)

وقال تعالى:

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾

(٥ المزمل)

أى علم معانيه والعمل به والقيام بحقوقه ثقيل، فمال الناس إلى الميسر (يعنى القراءة فحسب) وتركوا الثقيل (يعنى فهمه والعمل به) وهو المطلوب منهم[٤].

أما القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» فيذكر عن قارىء القرآن أنه ينبغى له أن يتعلم أحكام القرآن الكريم فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح لحامل القرآن الكريم أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو فكيف يعمل بمالا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه فلا يدريه فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا».

وإذا كان من تتمة الكلام هنا أن نشير إلى من توفرت فيهم تلك الحرية في تفسير القرآن الكريم وتميزوا على غيرهم من معاصريهم بالجرأة والاجتهاد الشخصي في التفسير فلابد أن نذكر بجوار ابن عباس من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب الذي كانت له الصدارة في التفسير وتتلمذ عليه كل من عبدالله بن عباس وعبدالله بن مسعود، وشهد له عمر بن الخطاب بالمنزلة العالية في قوله: «لولا عليّ لهلك عمر، وبئس المقام بأرض ليس بها أبو الحسن»، كما كان عليّ كرم الله وجهه يعرف لنفسه ذلك فيكشف عن دالته وسروره بهذه المنزلة عندما يقول: «إن ربي وهب لى قلبا عقولا ولسانا سؤولا»[٥].

كما كان لعبدالله بن مسعود نظراته العقلية وحريته في الفهم التى رشحته عند عمر بن الخطاب ليبعث به إلى الكوفة في العراق ليكون معلما لأهلها ووزيرا لأميرها الصحابي الجليل عمار بن ياسر.

أما من برزت أدوارهم في تلك الحرية وفاقت جهودهم في ذلك المجال جهود غيرهم فهم تلاميذ هؤلاء الصحابة من التابعين وبخاصة تلاميذ ابن عباس في مكة وفي مقدمتهم مجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس، ثم قتادة بن دعامة السدوسى والحسن البصرى من تلاميذ ابن مسعود بالكوفة، وقد شاركهم في ذلك الموقف إلى حد كبير زيد بن أسلم وابنه عبدالرحمن بن زيد من تلاميذ الصحابي الجليل أبيّ بن كعب بالمدينة.

وهكذا عرف هؤلاء المفسرون وغيرهم للقرآن الكريم وللغته ضرورة الحرية والجهد الشخصي في فهم النص القرآني منذ قلبوا أفهامهم فيه، وشاركهم في هذه المعرفة اللغويون الذين اتجهوا ببحوثهم اللغوية مباشرة إلى النص القرآني، وها هى تفسيرات هؤلاء وبحوث أولئك ـ بالرغم من بلوغهم بها أقصى ما يستطيعون ـ عاجزة في تحليلاتها المعنوية واللغوية عن استكناه حقيقة النص القرآني الكريم، ومازالت مناهجهم في التفسير بخاصة ـ كما أحسوا واعترفوا ـ تقف بهم عند البدايات الأولى لطريق طويلة عليه أن يقطعها نحو النضج والاكتمال، ذلك أنهم فيما يقولون عن العلوم الإسلامية قد قسموها إلى علوم نضجت واحترقت كالنحو والأصول، وعلوم نضجت وما احترقت كالفقه والحديث، وعلوم ما نضجت ولا احترقت كالتفسير والبيان[٦].

ولا نحسب أن في هذا القول شيئا من المغالاة أو المبالغة؛ لأن الباحث في تاريخ الفكر الإسلامي يجد أن جمهور المفكرين المسلمين ـ فضلا عن المفسرين ـ لا ينكرون أن يذهب الفهم في النص القرآني إلى ما وراء ظاهره، وإن كانوا يقيدون هذه الأفهام والمعارف بضرورة اتساقها مع ما عرف من أصول الإسلام وعدم مجاوزتها لذلك، كما يشترطون وجوب الإيمان والعمل بالظاهر على أنه أساس الدين.

وهكذا نجد أن اتجاه الفكر الإسلامي منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح لا يحظر هذا الفهم القائم على غير ظاهر النص القرآني، وإذا لم يكن هذا هو مراد النبي صلى الله عليه وسلم من دعوته لابن عباس بالفقه في الدين والعلم بالتأويل لم يكن هناك وجه لتخصيصه بتلك المنزلة من كتاب الله.

ونخلص من هذا كله إلى أن مبدأ تعدد المفهومات للنص القرآني وعدم اقتصاره على المعنى الظاهر منه مبدأ مسلم به من العلماء ذوى الشأن في ذلك، وصلاحية النص القرآني لمواجهة الإدراكات المتسامية يعرفها الحكماء وأهل العلم الذين وجدوا فيه ما أشبع إدراكاتهم، ولهذا لم يتحرج المفسرون على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم من الأخذ بهذا المبدأ نفسه في تلمس معان متعددة في بعض مناطق العبارة بعد كشفهم لمعناها الظاهر القريب قصدا منهم إلى سبر أغوار النص القرآني، والجرى وراء مضموناته وأهدافه وغاياته، وهيهات لهم أن يبلغوها، فإن قدرة أى متفهم أو مفسر للقرآن الكريم على أن يأخذ لنفسه شيئا من معاني القرآن ليست دليلا على أنه فهمه فهما كاملا، لقد فهم منه ما وسعه عقله فحسب، وترك لمن هم أذكى منه وأكثر خبرة بتراث ومعارف الإنسانية فرصة الدخول في أجواء وعوالم لا طاقة له بها(٧).

وقد أدرك أبو حامد الغزالي هذا المعنى حيث قرر ـ وهو بصدد ثورته التجديدية في التفسير وإحياء علوم الدين بعامة ـ «وأن من زعم أن لا معنى للقرآن الكريم إلا ما ترجمه ظاهر التفسير مخبر عن حد نفسه، ولكنه مخطىء في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التى هى حده ومحطه»، ويزيد على ذلك استشهاده على صحة ما ذهب إليه بأن الآثار والأخبار تدل على أن في معاني القرآن الكريم متسعا لأرباب الفهم(٨).

والله أعلم.

بعض مراجع القسم الثاني :

(١) مقدمتان في علوم القرآن ـ تحقيق آرثر جفرى ٢٥٩-٢٦١ .

(٢) الإتقـان في علوم القرآن ـ السيوطي ١/٢٤١، ٢/٣١٥، وراجع : محاسن التأويل للقاسمى ١/١١ .

(٣) الإسلام ـ أهدافه وحقائقه ـ سيد حسين نصر ص٤٤ .

(٤) مقدمتان في علوم القرآن ـ تحقيق آرثر جفرى ص٢٦٠ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن ـ السيوطى ٢/٣١٩ .

(٦) مناهج تجديد ـ أمين الخولى ص ٣٠٢ .

(٧) نظرية المعنى في النقد العربي ـ د. مصطفى ناصف ص١٦٧ .

(٨) إحياء علوم الدين ـ الغزالي ٣/٥٢٢ .